الفصل الثالث

الحكم التركي في السودان

حكم محمد عليّ باشا للسودان :

لكي نتعرف علي فترة حكم «محمد عليّ باشا»، للسودان، يجب أن نذكر الأسباب التي أدت إلى التفكير لفتح السودان، وهي:-

١-رغبة محمد عليّ باشا في تكوين جيش قوي جرار، لحمايته وممتلكاته من شر الأعداء، ولكي يساند بهم جيشه من الأتراك والألبان، فاتجه إلى بلاد السودان لما عرف عن رجالهم بالشجاعة والبسالة، فوجد فيهم الشدة والصبر.

٢-اكتشاف منابع النيل شريان حياة مصر، ثم ترحيل غير المستوعبين منهم في الجيش إلى حقول الزراعة في مصر للفلاحة والحرث والحصاد.

٣-القضاء على بقايا المماليك الذين هربوا جنوباً.

بدأ تحرك جيش «محمد عليّ»، في يوليو ١٨٢٠، وبعد معارك عنيفة وصدام ما بين القبائل ومقاومة شرسة، تساقطت الممالك واحدة تلو الأخرى الى أن دانت له بلاد السودان. ثم بدأ في إرساء نظم الحكم والإدارة وفرض الضرائب وفي ذلك استعان بأهل البلد لدرايتهم ببيئتهم. بدأ محمد على باشا يحكم السودان مركزيا حتى عام ١٨٤٥ وبعدها تم تقسيم السودان إلى مديريات وهي دنقلا، بربر، الخرطوم، التاكا، سنار، كادقلي، كردفان، وجميعها تحت مسئولية مصر مباشرة إلا أن هذا النظام اللامركزية أثبت فشلا وتشتتا كبيرا فاضطره إلى إرجاع المركزية عام ١٨٤٦-١٨٥٠ تحت إمرة خالد باشا، ووضع يديه على مينائي سواكن ومصوع. حتي تضخمت وزادت استثمارات محمد علي في السودان بصورة جعلت الدول الأوربية تحسده على ذلك. ثم بدأت زراعة النيلة للصباغة والقطن (من أكبر

المكاسب لحكومة الخديوي وقد اتسعت زراعته) والشعير وعلموا الأهالي دباغة الجلود ونجحت كل هذه التجارب. شجع شيوخ الخلاوي براتب من الذرة لغذاء التلاميذ وإعانات شهرية وذهب أكثر من ذلك حيث أمر بإرسال النابهين إلى الأزهر الشريف بمصر. أما أول مدرسة فقد أسست عام ١٨٣٥ م بالخرطوم في عهد عباس باشا لتعليم أبناء الموظفين المصريين والراغبين من السودانيين وبعد ذلك صدق لكل مديرية بمدرسة. السودان بلاد متسعة ووعيرة بها الصحاري، فقد كانت وسائل الموصلات هي الجمال والحمير والمراكب وأضاف الأتراك نوعا من المراكب الشراعية لم يكن معروفاً في السودان تسمى المركب (القياسية) أو ناقلة البضائع والذهبية ناقلة الركاب، وبدأ مد خطوط سكة حديدية حيث مد خط اتجه جنوباً من حلفا مسافة ٧٥ ميلاً إلا أنه توقف نتيجة اضطرابات مالية. نسبة لوجود الوبائيات الفتاكة بالسودان مثل الكوليرا والملاريا والجدري فقرر فتح مستشفيات بعواصم المديريات وأكبر هذه المستشفيات هي مستشفى الخرطوم.... وأضيف بعض من مقال للكاتب المصري الدكتور محجوب ثابت في جريدة الأهرام ـــ الإثنين ١ سبتمبر ١٩٢٤ العدد (١٤٤٦٢) ـــ واصفاً إنجازات هذه الحقبة الزمنية رداً علي مقالات لكتاب إنجليز يقللون من شأن أعمال محمد عليّ باشا في السودان نافخياً في بوق «فرق تسد»، فقال:« فان هم اليوم وهم يدعون بتمدين السودان والعمل بالشورى من تلك المجالس الشورية التي ألفها محمد عليّ وإبراهيم وسعيد وإسماعيل، من أعيان السودان ليمدوا آراءهم في إدارة بلادهم وطريقة تعمير تلك البلاد؟!. فبماذا يفاخرون المصريين بالمدارس، ومدارس رفاعة بالخرطوم من عالية وابتدائية وثانوية ما تزال ماثلة إلى ألآن. أيزرع القطن والمصريون هم الذين زرعوا هذا القطن بالسودان ومنه يصنع الدمور، القماش المشهور؟ أيفتح السدود وقد فتحها إسماعيل أو بتسير المراكب إلى بحر الغزال وخط الاستواء؟ أم بالورش الصناعية وورش الخرطوم كانت تصنع الوابورات الحربية ذاتها وقد صنعت منها ٢٥ وابوراً ومئات من المراكب والذهبيات؟ أم بالسكك الحديدية التي باشر مدها سعيد باشا من «حلفا»،

وإسماعيل من «سواكن إلى طوكر»؟. أبالتلغراف وكان التلغراف يطوق بلاد السودان من أبعد أطرافها إلى أقصاها؟. لقد أسرف هؤلاء الكتاب من الانجليز في التطاول والتحامل علي المصريين وحكمهم في السودان ولقد غمضوا حق محمد عليّ وخلفاءه غمضاً كبيراً فأبعدتهم الأغراض عن العدل والإنصاف، ودفعتهم في تيار المطاعن والمثالب إلى أبعد مدي وأقصي مجال. ولكن للحق أنصاراً لا يقعدون عن نصرته، وللتاريخ عيوناً شاهدات وألسنه ناطقات ترجع الحق و الحقيقة إلى نصابها. وبعد غد تبين تهجمهم علي تاريخ محمد عليّ وسعيد وإسماعيل في السودان وتثبت لهم انه كان تاريخ المدنية والحضارة والعمران والتعليم والتهذيب، مما تحمر وجوههم خجلاً إذا كانت فيها بقيه من الحياء.»

ولكن ... ونسبة لحالة الفقر جراء الضرائب والإتاوات الباهظة والفساد، هذا خلاف المعاملة السيئة والظلم من قبل الموظفين المسئولين، بدات حالة من النفور والتذمر علي الأوضاع تظهر علي الأفق .... فما هي الحالة التي توجبت ظهور من ناصبهم العداء وطالب برفع الظلم الذي لحق بأهل السودان، ورفع راية العصيان ووجد القبول من الكثيرين من ساخطي الأوضاع حينها؟.